أبو سيف يوسف

«مع أن الوفد كان يمثل الطبقة البرجوازية المتقدمة إلا أن إمكانيات هذه الطبقة أخذت تضعف فانعزلت شيئا فشيئا عن الشعب، وظهرت طبقة شعبية أخرى هى طبقة العمال».

أبو سيف يوسف

(الفجر الجديد - ١٩٤٥/٧/١٦)

وإذا كان الشاعر القديم قد أكد

أيقنت أن المستحيل ثلاثة..

الغول والعنقاء والخل الوفى.

فإنه لم يتعرف على أبو سيف يوسف الذى ظل وحتى رحيله من المستحيل أن تجد سبيلا لدفعه للحوار عن نفسه أو عن تاريخه أو عما فعل أو عما سيفعل، هل هو العزوف التقليدى للفلاسفة، أم الترفع عما هو ذاتى أو هو التطبيق العملى لشعار «ما لا ينفع يضر» لكن زملاءه فى تبنى هذا الشعار تحدثوا جميعا عندما أدركوا أن تقادم الأحداث يجعلها متاحة، وأن إغلاق عين التاريخ يضر ولا يفيد، لكن أبو سيف يوسف ظل صامدا صامتا مترفعا عن الحديث عن نفسه، وكان من الضرورى أن نبحث عن مصادر أخرى لنتعرف على السياسى والفيلسوف أبو سيف يوسف، وعن الرفيق عباس، وهذا هو اسمه الحركى الأخير.

ووجدنا عدة مصادر للتعرف عليه منها حوارات مع رفاقه وأيضا كتاباته فى «الفجر الجديد» التى كتب فيها باسمين «رأفت يوسف» و«أ.ى» وفى العدد الأول للفجر الجديد نقرأ مقالا فلسفيا بعنوان «الفن والطبيعة والمجتمع» ونتعثر فى قراءة المقال لصعوبة المرتقى، فيه عبارات من نوع «لا ينبغى أن نعارض المثال بالحقيقة لأن المثال هو التعبير الأسمى عن الحقيقة»، والمقصود من العبارة معلوم لكنه أتى مغلقا بإحكام، وقد أكد لى أبو سيف فى جلسة صفاء فى مجلة «الطليعة» أنه مظلوم بهذا المقال لأن أحد مسئولى الجريدة أعطاه

المقال بالإنجليزية وطلب ترجمته، وفات الجريدة أن تشير إلى أن المقال مترجم (الفجر الجديد - ١٩٤٥/٥/١٦)، وفى المجلة مقال عن حزب الوفد كتبه هو تحت توقيع «رأفت سيف» وهنا تجد التحليل السلس والمتقن فالحديث فى السياسة رحب، وفى المقال نقرأ «لقد تغلبت العناصر اليمينية على سياسة الوفد ووجهتها، وكان أن أصبح أميل من ذى قبل إلى التفاهم مع المستعمر، ومنذ أقيلت الوزارة الوفدية الأخيرة وسياسة الوفد مطبوعة بطابع التردد إزاء المستعمر، وإزاء المشاكل الداخلية على السواء، فإزاء الاحتلال يكتفى بإرسال مذكرات ضعيفة للسفارة البريطانية، ثم تعلن صحفه أن الوفد قد أدى مهمته، أما فى الداخل فالوفد لا يعرف كيف يدافع دفاعا سليما عن حقوق الشعب وحرياته الأساسية» (الفجر الجديد - ١٩٤٦/٣/١٣)، وفى عدد آخر تقرأ مقالا بعنوان «فلسفة أم أسطورة»، وبرغم أنه لم يورد فيه كلمة الماركسية ولا مرة واحدة فإن مطالعة المقال: تكشف عن مقاربة ذكية وسلسة يبشر فيها بالماركسية، ونقرأ فى ختام المقال «والمذهب المادى يمكن أن يفهم فهما عقليا سليما، وقد وجدت الفلسفة التى قدمته فى صورة قبلها العقل وأقرها العلم ونعنى بها المادية الجدلية التى استعانت بمنهجها الدياليكتيكى على دراسة الطبيعة والإنسان فى تطورهما وخرجت من ذلك بمذهب إنسانى متناسق»، واكتفى أبو سيف بهذا الوصف (الفجر الجديد- ١٩٤٥/٧/١)، وإذا كان العقاد يترصد أى فكر حر أو تقدمى فقد هاج لهذا المقال وشن هجوما عنيفا على «الفجر الجديد» التى بادلته هجوما بهجوم ويبرز أبو سيف يوسف باسمه المستعار فى رد موضوعى متقن فيقول: «ونحن نستطيع أن ندحض اتهام الماركسية أنها عقيدة جامدة وتبشير، بالنظر فى طبيعة هذه الفلسفة، وقد قلنا فيما تقدم إن الماركسية تتفق مع العلم فى أنها تنظر إلى الحقيقة نظرة نسبية ونرى أن الوصول إليها عمل تحققه الإنسانية والأجيال المتعاقبة لا فرد واحد»، ثم يقول: «ولقد بدأ اختبار الفلسفة الماركسية، وقد دل الاختبار على نجاحها البين الملموس، أن الفلسفة الماركسية فلسفة حركة، بل لعله من الأفضل أن نقول إنها الفلسفة الأولى والوحيدة للحركة العامة، حركة العقل البشرى فى محاولته أن يوافق الحقيقة موافقة وثيقة، ومدللا باستمرار على هذا التوافق بنجاحه العملى» (١٩٤٥/١٠/١).

وتكون معركة أبو سيف يوسف ضد العقاد سبيلا لكى تكشف «الفجر الجديد» تماما عن وجهها فتخوض معركة الدفاع عن الماركسية ونقرأ له فى عدد آخر (١٩٤٥/٩/١٦):

«يتهم العقاد الماركسية بالباطل فى كل شىء وهو يزعم أن ماركس لم يحيا حياة إنسان، وحقا أن ماركس لم يكن يتصف بالصفات الأساسية التى تجعله إنسانا فى نظر العقاد وأشباهه فهو لم يكن أنانيا ولا بوقا للرأسماليين ولا داعيا يفسد كل القيم ليعيش فى يسر ولين بينما الملايين مستعبدون ومضطهدون»، ثم تصدر «الفجر الجديد» كتابا أعده أبو سيف بعنوان «من حقائق الماركسية.. رد على العقاد».

ويمضى الرفيق عباس فى رحلة النضال إلى نهايتها يواصلها مفكرا ومنظما وقائدا. وعندما يقبض عليه بعد رحلة هروب طويلة يكون صاحب قرار الاعتراف بعضوية الحزب الشيوعى أمام المجلس العسكرى العالى. وعندما يفرج عنه فى ١٩٦٤ يبدأ رحلة عمل فكرى راق فى مجلة «الطليعة» ثم فى مركز الدراسات الاستراتيجية بـ«الأهرام» ومؤسسا فى منبر اليسار وقائدا فى حزب التجمع ويبقى كتاباه عن الأقباط والوحدة الوطنية ثم كتابه «وثائق ومواقف من تاريخ اليسار المصرى» علامات أساسية فى الفكر المصرى.